Al-Daleel
مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies

Duality of Reason and Revelation in the Philosophical Method of Thomas Aquinas.. Reviewing and criticism

Ali Shimon Hanna

Assistant Professor of Islamic Philosophy, Al-Mustafa International University.

E-mail: ali.sheikh@aldaleel-inst.com

Summary

The topic of the article is the study of the relationship of reason and revelation in the philosophical approach of Thomas Aquinas, the Christian philosopher. The study highlights the most important foundations of Aquinas's philosophical approach, especially the most important philosophical-theological issue. It is the relationship between reason and revelation, and how Aquinas attempted to use revelation and reason in order to found the most important Christian theological beliefs, how to make use of philosophy to explain those beliefs, how to defend Christian thought, theology and beliefs, and prove that it would not contradict reason. Moreover, the study discusses Aquinas's reformative impact on Christian thought, and how he has quoted many philosophical issues from the Peripatetic school, especially the philosophical views of Ibn Sina (Avicenna). Aquinas also has greatly been affected by the views of Ibn Rushd al-Andalusi (Averroes), who had explained the philosophy of Aristotle. Therefore, the philosophy of Ibn Rushd and Ibn Sina is the original source of Aquinas's philosophy that has overcome the whole Europe since the thirteenth century, especially in his attempt to synthesize reason and Christian revelation, or wisdom and the Shariah.

Keywords: reason, revelation, philosophical thought, Thomas Aquinas.

Al-Daleel, 2022, Vol. 5, No. 1, PP.58-82
Received: 5/3/2022; Accepted: 1/4/2022
Publisher: Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies
©the author(s)

ثنائية العقل والوحي في المنهج الفلسفي لتوما الأكويني.. عرض ونقد

د. علي شمعون حنا

أستاذ مساعد في الفلسفة الاسلامية، جامعة المصطفى العالمية. البريد الإلكتروني: ali.sheikh@aldaleel-inst.com

الخلاصة

موضوع البحث هو دراسة علاقة العقل والوحي في المنهج الفلسفي لتوما الأكويني الفيلسوف المسيحي، وتبرز هذه الدراسة أهمّ أسس المنهج الفلسفي عنده، لا سيّما أهمّ مسألة فلسفية لاهوتية وهي كيفيّة العلاقة بين العقل والوحي، وكيف سعى لاستخدام الوحي والعقل في تأصيل أهمّ الاعتقادات اللاهوتية المسيحيّة، وكيفية توظيف الفلسفة لتوضيح تلك الاعتقادات، وكيفية دفاعه عن الفكر واللاهوت والعقيدة المسيحية، وإثبات عدم مخالفتها للعقل، وكذلك بيان أثره التجديدي في الفكر المسيحي، وكيفية اقتباسه للكثير من المسائل الفلسفية من منهج المدرسة المشّائية وعلى الخصوص آراء ابن سينا الفلسفية، وقد تأثّر الاكويني أيضًا بشكل كبير بآراء ابن رشد الأندلسي الشارح لفلسفة أرسطو، ففلسفة ابن رشد وابن سينا هي المنبع الأصلي للفلسفة الأكوينية التي اجتاحت أوروبا منذ القرن الثالث عشر، وخصوصًا في محاولته للتوليف بين العقل والوحي المسيحي أو الحكمة والشريعة.

الكلمات المفتاحية: العقل، الوحي، الفكر الفلسفي، توما الأكويني.

مجلة الدليل، 2022، السنة الخامسة، العدد الأول، صص. 58-82

استلام: 2022/3/5 ، القبول: 2022/4/1

الناشر: مؤسسة الدليل للدراست والبحوث العقديّة

© المؤلف

المقدمة

تتناول هذه الدراسة العلاقة بين العقل والوحي الفلسفي لتوما الأكويني الكاثوليكي مؤسّس الاتّجاه الفلسفي التجديدي في الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ويستعرض البحث المنهج الفلسفي عند توما الأكويني في التوفيق بين الوحي والعقل، فمع استناده على نصوص الكتاب المقدس في إثبات العقائد التي يراها حقّةً وصحيحةً، وسعى جاهدًا لطرح تلك العقائد بثوب جديد قوامه العقل والفلسفة، في محاولة منه للتوأمة بين العقل والنقل لإثبات العقائد الدينية المسيحية والدفاع عنها عقليًّا وفلسفيًّا.

أوّلًا: التعريفات

قبل الدخول في أصل البحث أرى لزامًا التطرّق إلى المبادئ التصوّرية للموضوع، وذلك من خلال تقديم تعريف عن المفاهيم المرتبطة بالعنوان لتتّضح الصورة بشكل أفضل، وبعد ذلك تقديم مختصر عن حياة الفيلسوف توما الأكويني.

1ـ العقل

العقل لغة كما عرّفه الجوهري هو الحجر والنهى [انظر: الجوهري، الصحاح، ج 5، ص 1769]، وقال ابن فارس: «العين والقاف واللام أصلٌ واحدٌ منقاسٌ مضطردٌ يدلّ عظمه على حبسة في الشيء أو ما يقارب الحبسة، ومن ذلك العقل وهو الحابس عن ذميم القول والفعل» [ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج 4، ص 69]، وقال ابن منظور: «العقل الحجر والنهى ضدّ الحمق، والجمع عقول ... مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه، وقيل: العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، أخذ من قولهم قد اعتقل لسانه إذا حبس ومنع الكلام ... وسمّي العقل عقلًا لأنّه يعقل صاحبه عن التورّط في المهالك أي يحبسه» [ابن منظور، لسان العرب، ج 11، ص 458].

أمّا العقل اصطلاحًا فنعني به العقل المعرفي الذي هو آلة الإدراك لدى النفس العاقلة الإنسانية، وجميع المعطيات البشريّة تحصل لإعمال الفكر والبرهان على مستوى المفاهيم والقضايا، يقول ابن سينا في بهذا الخصوص: «أخصّ الخواصّ بالإنسان تصوّر المعاني الكلّيّة العقلية المجرّدة عن المادّة كلّ التجريد ... والتوصّل إلى معرفة المجهولات تصديقًا وتصوّرًا من المعلومات العقلية... فتكون للإنسان إذن قوّةٌ تختصّ بالآراء الكلّيّة» [ابن سينا، الشفاء، ج 2، ص 184].

فهو عبارة عن القوّة المدركة للكلّيّات في الإنسان، وهو معنى التعقّل الذي يمثّل مرتبةً من مراتب الإدراك وراء الحسّ والخيال والوهم، وبه يتميّز عن بقية الحيوانات، والمقصود لنا في بيان العلاقة بين

العقل والوحي هو العقل البرهاني القائم على الأوّليّات العقلية الفطرية البدهية البيّنة أو المبيّنة بها، وهو أسلوب معرفي يعُتَمد فيه على قوّة العقل البرهاني في معرفة الحقائق وتكوين الرؤية الكونية عند الإنسان، وقد أطلق عليه عدّة أسماءكالتفكّر العقلي أو الفلسفي. [انظر: الطباطبائي، الشيعة في الإسلام، ص 94]

2ـ الوحي

الوحي في اللغة هو الإعلام فِي خفاءٍ والكلام الخفيّ، يقول بعض اللغويين إنّه يستعمل في الإشارة والكتابة والإيماء والإلهام والرسالة. [انظر: الفراهيدي، العين، ج 3، ص 320]

وقال الراغب: «أصل الوحي، الإشارة السريعة، ولتضمّن السرعة قيل: أمر وحيّ أي سريع. وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرّد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة. [الراغب الإصفهاني، المفردات، ص 515]

أمّا تعريف الوحي اصطلاحًا فهو عبارةٌ عن كلام الله ﷻ الموجّه لشخصٍ معيّنٍ من البشر بواسطة ملكٍ مرسلٍ من قبله سبحانه، يُرى ذاته ويسمع كلامه كما في الوحي إلى النبيّ الأعظم ﷺ مع جبريل، حيث كان يرى شخص جبريل ويسمع كلامه. [الطبري، تفسير الطبري، ج 20، ص 540]

وجاء الوحي في القرآن الكريم في معانٍ متعدّدة وليس بمعنًى واحد، وما يهمّنا في بحث الوحي هو الوحي إلى الأنبياء عليهم السلام، وقد تكرّر ذكر الوحي للأنبياء في القرآن الكريم عدّة مرات، وقد تحدّث القرآن الكريم عن صور وأنواع الوحي الإلهي للأنبياء، وأجمع آية تشير إلى أنواع الوحي هي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [سورة الشورى: 51]، قال بعض العلماء حول هذه الأنواع من الوحي التي أشارت إليه الآية: «والوحي الرسالي لا يعدو مفهومه اللغويّ بكثير، بعد أن كان إعلامًا خفيًّا، وهو اتّصال غيبيّ بين الله ورسوله، يتحقّق على أنحاء ثلاثة، كما جاءت في الآية الكريمة ... فالصورة الأولى: إلقاء في القلب ونفث فى الروع. والثانية: تكليم من وراء حجاب، بخلق الصوت فى الهواء بما يقرع مسامع النبيّ ولا يرى شخص المتكلّم. والثالثة: إرسال ملك الوحي فيبلّغه إلى النبيّ، إمّا عيانًا يراه، أولا يراه ولكن يستمع إلى رسالته» [معرفت، التمهيد في علوم القرآن، ج 1، ص 31].

3ـ المنهج الفلسفي

تعدّدت التعريفات حول مفهوم "المنهج"، والمنهج له معنيان أحدهما لغوي، والآخر اصطلاحي،

فمن الناحية اللغويّة تعني كلمة "منهج"[1] لغويًّا طريقةً أو فعلًا أو تعلّم شيءٍ معينٍ وفقًا لبعض المبادئ بصورةٍ مرتبةٍ ومنسّقةٍ ومنظّمةٍ، جاء في معجم لسان العرب في مادّة نهج والمنهاج: «الطريق الواضح، واستنهج الطريق: صار نهجًا، وفي حديث العبّاس: لم يمت رسول الله ﷺ حتى تركّكم على طريق ناهجة أي واضحة بيّنة، وفلان يستنهج سبيل فلان أي يسلك نهجه، والنهج الطريق المستقيم» [ابن منظور، لسان العرب، ج 14، ص300].

فالمنهج هو مجموعة من القواعد التي يتمّ وضعها بغرض الوصول إلى الحقيقة العلمية، بمعنى أنّه الطريقة أو الخطّة التي يتّبعها الباحث في دراسته للمشكلة لاكتشاف الحقيقة المتعلّقة بموضوع البحث أو مشكلته.

أمّا بخصوص الفلسفة فقد ذكر اللغويون معاني للفلسفة، وهي كلمة دخيلة في اللسان العربي، فأصلها يوناني، وتعني عندهم محبّة الحكمة، وكلمة الفيلسوف أصلها مركّب من "فيلا" و"سوفا" أي: محبّ الحكمة [انظر: الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، ص 121]، أمّا اصطلاحًا فإنّه يبقى من الصعب تحديد مدلول الفلسفة بدقّة، فقد تعدّدت تعريفات الفلاسفة لها، فعرّفها أفلاطون بأنّها:«إدراك الحقيقة» [المنياوي، جمهورية أفلاطون، ص 175]، والإدراك يعني الإحاطة بالأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر. [انظر: الجرجاني، التعريفات، ص 29]، وبهذا المعنى عرّف فلاسفة الإسلام الفلسفة، فهي: «علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الانسان؛ لأنّ غرض الفيلسوف في علمه إصابة الحقّ، وفي عمله العمل بالحقّ» [الكندي، رسائل كندي الفلسفية، ص 97].

ومن خلال ما تقدّم يتّضح المعنى المراد من المنهج الفلسفي، وهو المنهج الذي يعتمد على العقل البرهاني التجريدي في مسعاه إلى كشف الحقائق أو من أجل البرهنة عليها، بنحوٍ مباشرٍ وبوساطة القواعد المنطقية والعقلية.

ثانيًا: لمحة عن حياة توما الأكويني

هناك العشرات من المصادر كتبت عن حياة الأكويني، وهي تقريبًا متشابهةٌ إلى حدّ ما في شرحها لحياته، وهنا أنقل قصّة حياته بشكل مختصر كما ذكرها البابا بنديكتوس السادس عشر[2]، وهو أعلى سلطة كنسية في العالم المسيحي الكاثوليكي، ولتوثيق ما ذكره بخصوص توما الأكويني، يقول البابا في معرض سرده لحياة الأكويني: «ولد توما بين عامي 1224 و1225 م في قصر عائلته النبيلة الغنيّة في

(1) المعادل الإنجليزي لكلمة المنهج هو "method".

(2) بابا الفاتيكان السابق بندكيت السادس عشر الذي استقال من منصبه، وقد ألقى هذه المحاضرة ضمن تعاليمه التي يلقيها على رؤساء وأتباع الكنيسة الكاثوليكية. [انظر: القديس توما الأكويني، تعليم 2 حزيران 2010 م]

ناحية أكوينو (جنوب إيطاليا)، حيث أرسله والداه لتحصيل الموادّ الأولى من التعليم، وانتقل بعد سنوات إلى نابولي عاصمة مملكة صقلية، كان يُعلَّم فيها فِكر الفيلسوف اليوناني أرسطو، وقد اجتذب توما مثال الرهبنة التي أسّسها القديس دومينيك. ومع ذلك عندما ارتدى الثوب الدومينيكاني، عارضت عائلته هذا الخيار، فاضطرّ الى ترك الدير، وفي عام 1245 م أُرسل إلى باريس لدراسة اللاهوت تحت إرشاد ألبرتو الكبير، وقد درس الأكويني تاريخ الفلسفة واللاهوت، فقد درس أرسطو ومفسّريه دراسةً وافيةً، وأظهر توما الأكويني أنّ هناك انسجامًا طبيعيًّا بين الإيمان المسيحي والعقل، وأقام توما في روما من عام 1265وحتّى عام 1268، حيث كان يدير مركز دراسات الرهبنة، وحيث بدأ يكتب الخلاصة اللاهوتية. وفي كانون الأوّل 1273 م تُوفّي توما بعد بضعة أشهر، وهو في طريقه إلى ليون، حيث كان متوجّهًا للمشاركة في المجمع المسكونيّ الذي دعا إليه البابا غريغوريوس العاشر.

ثالثًا: لمحة عن مكانة توما الأكويني الفلسفية واللاهوتية

لا يوجد أدنى شك في أنّ توما الأكويني يُعدّ من أعظم فلاسفة السكولاستيك (وهو أشدّ المذاهب المحافظين على تقاليد ومبادئ الكاثوليك)، إذ يعدّ لاهوته أساسًا لمذهب الكنيسة الكاثوليكية منذ مجمع الفاتيكاني الأول سنة 1879 م ولحدّ الآن، بل يعدّ من كبار فلاسفة التاريخ المسيحي؛ لأنّ توما الأكويني استطاع الفصل بين اللاهوت والفلسفة وجعل الثانية تخدم الأولى، وأعلن البابا يوحنا الثاني والعشرين في سنة 1318 م بأنّ تعليم الأكويني كان معجزةً، وأنّه بوحده أنار الكنيسة أكثر من كلّ الأساتذة قبله، وقد أثارت حياته الإجلال في نفوس معظم معاصريه، وطُلِب من البابا تكريسه قديسًا، فعُيِّنَت لجنةٌ تحقّق في حياته، ثمّ محكمةٌ حقّقت في نابولي عام 1319مع 42 شاهدًا، وبنتيجة ذلك أعلن البابا في 18 تمّوز 1323 رَفع الأكويني إلى رتبة قديس يُحتفل بعيده في 7 آذار. [انظر: علي زيعور، الفلسفة في أوربا الوسيطة، ص 326]

لقد تأثّر الأكويني في بداية حياته بالفلسفة الأوغسطونية، وتأثّر أيضًا بابن سينا وظهر ذلك جليًّا في مؤلّفاته، فقد استشهد الأكويني بأقوال لابن سينا في حوالي 400 موضع [انظر: إدوارد، الفلسفة الوسيطية، ص 20]، وكذلك تأثّر كثيرًا بابن رشد الأندلسي، فيذكر بعض الباحثين بهذا الخصوص أنّ «القديس توما الأكويني اقتبس من كتابات ابن رشد خمسمئة وثلاث مرات وفقًا للموسوعة الكاثوليكية، وإن الموسوعة تضيف إلى ذلك، وترى أنّ القديس توما اتّخذ من الشرح الكبير لابن رشد موديلًا له، ولكنّ القديس توما عمل في الوقت ذاته على تفنيد ابن رشد وكشف ما أسماه بالأخطاء التي وقع فيها؛ ولهذا خصّص رسائل عدّة لإنجاز هذا الغرض، وعندما ينقل منه أو يتحدّث عنه، فيقول: كما قال الشارح العربي» [الفرحان، أوراق فلسفية جديدة، ابن رشد والقديس توما الأكويني، المجلد الثالث، العدد الخامس، شتاء

2012، ص 36].

فالأكويني اقتبس أغلب آراء أرسطو من كتب ابن رشد وشروحاته، ومع أنّه يذكر بشكل صريح اقتباسه عن ابن سينا، ولكن في أحيان كثيرة كان يقتبس من دون الإشارة إلى المصدر، وحاول بعض الباحثين تعليل ذلك بأنّه كانت العادة في الكتابة آنذاك على هذا النحو، فلا تعتني بذكر مصادر الاقتباس، وبهذا فهو لم يخرج عن قاعدة الكتابة في ذلك الزمان، وقد علّل بعض الفلاسفة الغربيين هذا التوافق بين آراء ابن رشد والأكويني من كونها توارد خواطر ليس إلّا. [انظر: أبو عياش، الفيلسوف توماس الأكويني غذته الفلسفة الرشدية فتنكر لها، ص159]

ولا يوجد فيلسوف ولاهوتي في المسيحية ترك بصماته وآثاره على من جاء من بعده من الفلاسفة واللاهوتيين المسيحين كتوما الأكويني، وهذا هو رأي الكنيسة الكاثوليكية بصورة عامة، وان كان هناك من يعتقد انه ياتي بالمرتبة الثانية بعد أوغسطين اللاهوتي من حيث التأثير في المسيحية، ولكن أعتقد ان المرتبة الاولى من حيث التأثير هي للأكويني دون أوغسطين قطعًا، والادلة على ذلك كثيرة، وأهم لقب أطلق عليه هو معلم معلّمي الكنيسة.

ومن المتّفق عليه لدى جميع الباحثين في حياة الأكويني أنّه كان راهبًا ومتصوّفًا، قبل كونه فيلسوفًا ولاهوتيًّا، وقد ذكر بعض الدارسين لحياته الحالة الإيمانية والمعنوية أو الرهبانية التي كان يعيشها، والانتظام وفق المستلزمات الرهبانية والواجبات الدينية، حتّى عزا إليه بعض كتّاب سيرته الأوائل ما يشبه المعجزات وأعمالًا خارقةً للطبيعة، كما أنّه من خلال متابعتنا لتأليفاته الكثيرة والمتنوّعة، فإنّنا نجد أنّ بعض هذه المؤلّفات شروح للكتاب المقدّس، وهي شروح علمية روحية في الوقت نفسه، ولكن بالرغم من هذا لا نجد بصماتٍ واضحةً في منهجه الفلسفي في الجمع بين العقل والمكاشفة القلبية، وهذا لا يعني عدم اهتمامه أو رفضه لها بعنوان معرفة يقينية، ولكنّ الكلام في أنّه لم يجعلها إحدى أدوات منهجه الفلسفي. [انظر: علي زيعور، الفلسفة في أوربا الوسيطة، ص 326]

نعم، هو يعتقد بأنّ الإيمان القلبي هو خيرٌ وأسمى من الفلسفة، يقول الأكويني بهذا الخصوص: «لقد جاء الكثير من الفلاسفة وقالوا الكثير من الأشياء في أمور تتعلّق بالإيمان، ونادرًا ما تجدون منهم ولو اثنين يتّفقان على نقطة واحدة، وكلّ الذين قالوا شيئًا من الحقّ لم يقولوه من دون أن يخلطوا معه شيئًا من الباطل، إنّ امراةً عجوزًا تعرف اليوم في ما يتعلّق بالإيمان أكثر من كلّ الفلاسفة القدماء ... الإيمان أقوى بكثير من الفلسفة، وبالتالي فإذا عارضت الفلسفة الايمان لا يجب أن نقبل بها» [لويس صليبا، هكذا علّم توما الأكويني، ص 133]. ويمكن أن يكون مراد الأكويني من الإيمان هنا الحالة القلبية التي يعيشها الإنسان، وهذا المعنى للإيمان لا يمكن أن تعارضه الفلسفة.

وفي القرنين التاسع عشر والعشرين ظهرت التوماوية المحدّثة[1] التي هي مدرسة تعتنق منهج الأكويني الفلسفي واللاهوتي، فمال إليها البابا ليون الثالث عشر في رسالة "الأب الأزلي" في 1879 م، بل إنّ تلك الرسالة لاقت صدى في الفكر العربي، فقد ترجم بولس عوّاد جزءًا لا يستهان به من "الخلاصة اللاهوتية"، وتلقّي من البابا عينه رسالة تشجيع وتأييد جاء فيها: «ليس أشهى لدينا من أن تنتشر في كلّ مكان تعاليم إمام المدرسيين الأكبر» [الأكويني، الخلاصة اللاهوتية، الترجمة العربية، ج 2، ص 2]، وكانت لهذه الرسالة أصداء كبيرة منها عودة المفكّرين إلى منهج الأكويني الفلسفي بقصد مواجهة الحاجة الجديدة في الفكر والفلسفة والعقيدة الإيمانية، وقد أدّت هذه الدراسات الحديثة للتومائية إلى ظهور دراسات مهمّة وشروحٍ عميقة لفلسفته، مثل الفيلسوف الفرنسي جاك مارتيان (Jacques Maritain) (1882 ـ 1973) الذي ارتدّ عن البروتستانتية عام 1906 واعتنق المذهب الكاثوليكي، وانصرف إلى دراسة التومائية (فلسفة توما الأكويني)، حتى لقد اعتبره بعض النقّاد أعظم شارحيها المعاصرين. [انظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، جاك مارتيان؛ الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص 398]

وقرر البابا بندكت الخامس عشر في عام 1921 م أن تكون مؤلّفات توما هي الفلسفة الرسمية للكنيسة الكاثوليكية، وهذه الفلسفة تدرس الآن في جميع كلّيات الروم الكاثوليكية؛ وقد كسبت لها انتصارًا جددًا في وقتنا الحاضر، وإن كان لها نقاد من بين علماء الدين الكاثوليك، ثمّ إنّ التومائية اليوم ليست منتشرةً في الأوساط الكاثوليكية فقط، بل لها اهتمام على نطاق واسع بإعتبارها حركةً فلسفيةً ومنهجًا لاهوتيًا مستمدًّا من العصر الوسيط، وقد ازدهرت التومائية الجديدة بعد الحرب العالمية الأولى، وصارت من التيّارات الفكرية الفاعلة في الفكر المسيحي هذا العصر؛ إذ إنّها تضمّ مراكز عديدةً للدراسات وعددًا من المفكّرين الكبار، ربّما يوضّح ذلك كون "النشرة التوماوية" تحتوي سنويًّا حوالي 500 عنوان محاضرةٍ وكتابٍ، وإنّ في العالم من لا يقلّ عن 25 مجلّة توماوية يذكر من أشهرها: المجلّة التوماوية، ومجلّة العلوم الفلسفية واللاهوتية، ومجلّة الفلسفة وتصدر عن المعهد الكاثوليكي في باريس. [علي زيعور، الفلسفة في أوربا الوسيطة وعصري النهضة والإصلاح، ص 332]

---

(1) مرّت التومائية بمراحل تاريخية ثلاث، امتازت الأولى التي تمتدّ من مجيء الأكويني حتّى بداية القرن الخامس عشر، بازدهار السكولاستيكية (المدرسية)، ومنافسة قوية بين عدّة مدارس، واتّسمت المرحلة الثانية، التي تمتدّ من القرن السادس عشر حتّى القرن الثامن عشر، بازدهار التومائية الإسبانية، أمّا المرحلة الثالثة التي تمتدّ من منتصف القرن التاسع عشر حتّى وقتنا الحاضر، فإنّها تتميّز بالرسالة البابوية الصادرة عام 1879، التي فيها صارت التومائية الفلسفة الرسمية للكنيسة الكاثوليكية، ولا يتبع التمييز بين تلك الفترات الثلاث تطوّر فلسفات مختلفة، فالتومائية فلسفة واحدة (على تعدّد أشكالها)، ومستمدّة من تعاليم الأكويني. [انظر: سوسن البيطار، توما الأكويني (القديس)، الموسوعة العربية]

وبالحقيقة يوجد هناك نوعان من الفلسفة التوماوية المحدّثة، تومائية تقدميّة تطوّرت في باريس وميلانو انفتحت على العلم وعلى الحوار مع مختلف التيّارات الفكرية المعاصرة، هذه التوماوية الجديدة لم تتردّد في التضحية بما هو بالٍ وخاطئ في مؤلّفات الأكويني، بقصد تجديد منهجه الفلسفي وتحديثه وإعادة كتابته بلغة سهلة في العصر الحاضر، وهناك توماوية محافظة ذات نظرة ضيّقة تركّزت في الجامعات الكاثوليكية الرومانية ومراكز أخرى تستلهم تعاليمها منها، ورفضت كلّ نقد وأيّ تغيير على التومائية، وتمسّكت بشكل حرفي بتعاليم الأكويني وفلسفته، وما زالت هذه الرؤية لفلسفة الأكويني وتعاليمه قائمةً إلى اليوم في بعض الأوساط الفلسفية المحافظة وأصحاب القرار في الكنيسة الكاثوليكية. [انظر: لويس صليبا، توما الأكويني واثره عبر العصور، ص 158]

رابعًا: الأسس المعرفية في فلسفة الأكويني

من المهمّ أوّلًا دراسة الأسس المعرفية في منهج الأكويني، والتعرّف على فلسفته التي ما تزال محطّ اهتمام الفلاسفة المسيحيين واللاهوتيين على حدٍّ سواء؛ لأنّهم يرون فيها حلًّا للمسائل الدينية الاعتقادية، حتّى اشتهر عنه بأنّه معلّم معلّمي الكنيسة، والمشهور عبر التاريخ اللاهوتي المسيحي أنّ توما الأكويني كان يتمتّع بذكاءٍ حادٍّ لم يسبقه فيه لاهوتي مسيحي قبله ولا بعده، فإنّه اجتهد في دراسة الفلسفة دراسةً حقيقيةً، واستطاع فهمها بدقّةٍ وعرف جيّدًا المدارس الفلسفية، إضافةً إلى إيمانه المسيحي العميق واعتقاده بأنّ الكتاب المقدّس يتضمّن الحقيقة المطلقة التي كشفها الله تعالى للبشر، واستطاع بذكائه وإيمانه إقحام المفاهيم الفلسفية العقلية المحضة لتصيد الحقائق الدينية الموجودة في الكتاب المقدّس، والتي غالبًا ما تكون مستعصية الفهم على أكثر الناس؛ ولهذا كانت له منهجية فلسفية لاهوتية خاصّة به، امتاز بها على من سبقه من الفلاسفة المسيحيين، وهنا نشير باختصار إلى أهمّ الأسس المعرفية في فلسفة توما الأكويني:

1. الواقعية (Realism)

هناك من يذهب إلى أنّ الواقعية في الفلسفة تعني بأنّ للمحسوسات وجودًا مستقلًّا عن العقل، وبمعنًى أخصّ هي القول بأنّ للمفاهيم الكلّيّة وجودًا مستقلًّا عن الأشياء المفردة، ويمكن اعتبار الفلسفة الواقعية ردّ فعلٍ للفلسفة المثالية ومنافسة لها، وأوّل رائد لها هو أرسطو (383ـ 332 ق. م.) الذي قيل عنه إنّه نزل بالفلسفة من السماء إلى الأرض، والواقعية تقوم على نظرة للحقيقة تختلف تمامًا عن نظرية الحقيقة في الفلسفة المثالية، وتقول الواقعية إنّ الحقيقة موجودة في عالم الأشياء، ووجودها حقيقي، فكلّ ما هو موجود في العالم الخارجي ليس مجرّد فكرة ومثال كما تعتقد المثالية، ويمكن وصف فلسفة الأكويني بالواقعية بالانتقائية، فقد أسّس نظامًا فلسفيًّا خاصًّا متأثّرًا بالأرسطية

والرواقية إضافةً إلى المسيحية والأفلاطونية والأوغسطينية، كما تأثّر بما كتب ابن سينا وابن رشد وغيرهم من شرّاح لأرسطو؛ ولهذا يطلق عليها الانتقائية؛ لأنّها أخذت من كلّ فلسفة ما يتوافق مع منهج الأكويني في الفلسفة؛ ولهذا يطلق عليها أحيانًا الفلسفة الواقعية المعتدلة. [انظر: لويس صليبا، توما الأكويني وأثره عبر العصور، ص 155]

وعلى الرغم من اتّفاق الواقعيين على مبادئهم الفلسفية، إلّا أنّه قد نشأت اختلافات بين الفلاسفة في كيفية معرفة حقيقة الواقع الخارجي، وهناك ثلاث مدارس فكرية تمثّل الفلسفة الواقعية هي: الواقعية الكلاسيكية أو الإنسانية (Classical Realism or Humanism)، واختلفت الواقعية الحديثة عن واقعية أرسطو الكلاسيكية في المنهج الخاصّ بالكشف عن الحقيقة، فقد استخدم أرسطو المنهج الاستدلالي القياسي الذي ينتقل من المقدّمات الكبرى إلى الجزئيات، بينما استخدم فلاسفة الواقعية المحدثون منهج الاستقراء، الذي ينتقل من الجزئيات إلى المبدإ العام الذي تشترك فيه الجزئيات، وأكّدت استخدام الطريقة العلمية الموضوعية في البحث عن الحقيقة. [انظر: الطباطبائي، أصول الفلسفة والمنهج الواقعي، ص21؛ مطهري، أسس الفلسفة، ص 66]

والثانية هي الواقعية الدينية أو المدرسية (Religious Realism)، وتلتقي هذه الواقعية مع الفكر الديني في أنّ العالم المادّي عالم حقيقي يقوم خارج عقول الذين يلاحظونه، ويؤكّدون أنّ الإنسان مخلوق من مادّة وروح، إلّا أنّ الروح أعلى من الجسم "المادّة"؛ لأنّها من روح الله وهي سرّ حياة الإنسان، فالروح والجسد يشكّلان طبيعةً واحدةً، ويمكن معرفة الله بالإلهام كما يمكن معرفته بالعقل والخبرة، فالعالم عند الواقعيين ليس ازدواجيًّا، ولكنّه عالم واحد هو عالم الواقع الذي يعيش فيه الإنسان، ولكن تنظّمه مبادئ ثابتة. [انظر: مصباح يزدي، الذود عن حصون الأيدلوجية، ج 2، المقالة الثالثة "المثالية والواقعية"]

والثالثة هي الواقعية العلمية أو الطبيعية (Scientific Realism or Naturalism)، وظهرت في القرن السادس عشر، بعد ظهور العلم الطبيعي التجريبي في القرن الثالث عشر وتعود إلى روجر بيكون (Roger Bacon)، كان يتزعّمها فرانسيس بيكون (Francis Bacon) وجون لوك (John Locke)، وكان لظهور علماء من أمثال كوبرنيكوس (Nicolaus Copernicus) وغاليلو (Galileo Galilei) ونيوتن (Isaac Newton) دور مهمّ في ظهورها كفلسفة تميّزت عن غيرها، فقد جعلوا هدف البحث عن الحقيقة هو اتّباع الأسلوب العلمي الذي يعتمد على الملاحظة وجمع المعلومات والتجربة للوصول إلى تعميمات من الجزئيات، أو ما يسمّى أسلوب الاستقصاء العلمي، ووصلوا إلى نتيجة مفادها أنّ قوانين الطبيعة لها أساس رياضي كما قال فيثاغورس. [بول ديفيز، الجائزة الكونية الكبرى، ص 23]

وفلسفة الأكويني العقلية تميّزت باجتهاداته الخاصّة بين عدد من التفسيرات والتأويلات، وتمثّل ذلك بوضوح في موقفه من مشكلة الكلّيّات، واتّخذ حيالها موقفًا مخالفًا لأفلاطون، وهو موقف "الواقعية المعتدلة"، فاعترف بوجود الكلّيّات في العقل الإلهي، وفي الأشياء الجزئية، وفي العقل الإنساني. [انظر: الموسوعة العربية المسيحية، ج 7، ص 183]

2. المعرفة الدينية أساس العلم

إحدى خصائص المنهج الفلسفي الأكويني هو نظرته للمعرفة الدينية بصورة عامّة وإيمانه العميق بحقائقها، فقد عالج الأكويني مسألة الدين هل هو علم، أو غير علم؟ ومن خلال مطالعة آراء الأكويني يمكن القول إنّه يرى أنّ الحقائق الإلهية والتعاليم الوحيانية التي يمكن النظر فيها بالعقل الإنساني يجب أن يتثقّف الإنسان فيها أيضًا بالوحي الإلهي، وإلّا فإنّ هذه الحقائق الإلهية التي يمكن النظر فيها بالعقل الإنساني لا يتأتّى إدراكها إلّا لصنف قليل من الناس، وفي زمان طويل، ومع أوهام كثيرة، وخلاص الإنسان يتوقّف كلّه على معرفتها، فالمعرفة الحاصلة من التعاليم الدينية هي معرفة متكاملة وسهلة ومقدورة لعامّة الناس، على عكس الفلسفة التي جعلها بعضهم في مقابل الوحي بسبب استحواذ الفلسفة العقلية على عقول فلاسفة أوربّا في عصره، إذ يعتقد الأكويني بضرورة استقلال الوحي عن أيّ علم عقلي آخر كمرحلة أولى، فالمعرفة الدينية متكاملة، ولها وسائلها في إثبات الحقائق، وقد تختلف هذه الأساليب والوسائل تبعًا للمعلوم المراد الوصول اليه، وهذا يعني حجّيّة المعرفة الدينية وتماميّتها بغضّ النظر عن أيّ علم آخر، يقول الأكويني: «العلوم تختلف باختلاف اعتبار المعلوم، فإنّ الفلكي والطبيعي يبرهنان على نتيجة واحدة بعينها كالأرض كروية، غير أنّ الفلكي يبرهن عليها بوسيلة رياضية، أي معرّاة عن المادّة، والطبيعي يبرهن عليها بوسيلة مادّية، فإذن لا مانع من أن ما تبحث عنه التعاليم الفلسفية من حيث يدرك بنور العقل الطبيعي، يبحث عنه بعينه علم آخر من حيث يدرك بنور الوحي الإلهي؛ ولهذا كان العلم الإلهي الذي من قبيل التعليم المقدّس مغايرًا في الجنس لذلك العلم الإلهي الذي يعدّ قسمًا من الفلسفة» [الأكويني، الخلاصة اللاهوتية، ج 1، ص 11].

3. الاستعانة بالوحي لاثبات المسائل العقلية

وهي من الخصائص المهمّة للمنهج الفلسفي عند الأكويني، بل يمكن القول إنّ هذه الميزة في فلسفته هي التي جعلت من الأكويني فيلسوفًا مسيحيًّا مقبولًا لدى الكنيسة، بل ومن أجلها مُنح صفة قدّيس، ومعنى العقلانية في مجال نظرية المعرفة هو المذهب الذي يرى أنّ المعرفة اليقينية لا بدّ أن تكون كلّيّةً بحيث تشمل القضيّة جميع الحالات الجزئية، وأيضًا تكون تلك المعرفة ضروريّةً بحيث تلزم النتائج عن المقدمات لزومًا ضروريًّا، وترى العقلانية الفلسفية أنّ الكلّيّة والضرورة بوصفهما

صفتين منطقيتين للمعرفة الحقّة لا يمكن أن تستنتجا من التجربة فقط، وأنّ عموميتها تستنتج من العقل نفسه، إمّا من التصوّرات المفطورة في العقل، أو من التصوّرات الموجودة فقط في صورة الاستعدادات القبلية للعقل التي تمارس التجربة تأثيرها المنبّه على ظهورها، أمّا فيما يتعلّق بالموقف من الدين؛ فيشير وصف العقلانية إلى أصحاب رؤًى متعدّدةٍ، فمنهم القائل بأنّ المذاهب الدينية ينبغي أن تختبر بمحكٍّ عقليٍّ، أو القائلين بأنّه لا يجوز الإيمان بخوارق الطبيعة، وهذا المعنى الأخير لا ينطبق على كلّ العقلانيين؛ لأنّ منهم من يقبل المعجزات ويسوّغها عقلانيًّا، وأيضًا يطلق وصف العقلانية على الذين يقبلون المعتقدات الدينية، لكن بعد اختبارها اختبارًا عقليًّا، كما يطلق على المؤمنين الذين يفسّرون الدين في ضوء العقل ويعتبرون أنّهما لا ينفكّان عن بعضهما، فالعقلانية ليست بالضرورة ضدّ الدين. [انظر: الخشت، مقالة العقلانية جدل الفلسفة والدين، الموقع: http://www.onislam.net/arabic]

ومن خلال مطالعة تأليفات الأكويني ومنهجه الفلسفي نرى أنّ هذه الخصّيصة في منهجه جعلت من مذهبه محاكيًا لمذهب الحكمة المتعالية أو على أقلّ تقدير لمنهج الخواجة نصير الدين الطوسي، فالاثنان احترموا العقل واستدلالته مع الاختلاف بينهما في مدى الاعتماد على العقل وكيفية تطبيقاتهم لهذه المنهجية، ومع أنّهم فلاسفة عقليون ولكنّهم حكماء وحيانيون في الوقت نفسه، فأغلب مسائل فلسفة الدين التي تُبحث في عالمنا المعاصر تتوقّف على حلّ إشكالية العلاقة بين الوحي والعقل، وأيّهما المقدّم إذا ما كان هناك تناقض بينهما لا يمكن الجمع فيه؟ فهل الوحي هو الذي ننتصر له أم نتّبع العقل ويتمّ تأويل الوحي؟ وهذا ما سنبحثه بشكل مفصّل عند الأكويني.

خامسًا: العلاقة بين العقل والوحي عند توما الأكويني

لعلّه من أهمّ مميّزات منهج الأكويني الفلسفي بلا شكٍّ مسألة بيان كيفية العلاقة بين العقل والوحي، وممّا لا شكّ فيه فإنّ هناك حقائق من عالم الأسرار ـ إن صحّ التعبير ـ لا يُبرهَن عليها عقليًّا، ولا تخضَع للبرهان العقلي بشكل مباشر؛ بينما هناك ما يخضع له ويُستدَلّ عليه بالبراهين والبحث العقلي، من هنا ينبع تقسيم اللاهوت إلى الموحى المنطلِق من العقيدة، واللاهوت الطبيعي الذي يُعِدّه العقل ويصوغه، والنوع الأخير هو الفلسفة. ويعتقد الأكويني أنّ دراسة الحكمة الفلسفية نافعة وضرورية؛ أمّا الحكمة اللاهوتية فهي أكمل وأسمى المعارف قاطبةً، بل هي الأنفع، فالأكويني يتحدّى العقل ويؤكّد على قصوره عن ولوج ماهية الله وذاته المقدّسة؛ لكنّه من جهة مقابلة يعطي العقل مكانةً مرموقةً، ويعتبر من الأسس في المنهج الفلسفي التوماوي، ومن أبرز ميزاته، يقول بعض الباحثين: «صحيح أنّه اقتنع بعجز العقل لكنّه طبّق هذه الآلة، بلا كللٍ ولا تقصير على الموضوعات الموغلة في الغيبيات، وعلى هذا فانّ الأكويني فيلسوف في خدمة لاهوتي، وتدور فلسفته في فلك اللاهوت، لم يمارس الفلسفة إلّا من حيث

إنّها ذات نفع للحكمة الدينية. في تكرار موضّح، إنّ ما هو فلسفي في تلك البنية هو ما جاور اللاهوت ووقف عند تخومه يحميها أو يؤيّدها. إنّه لاهوتي، ولكنّه يتسلّح بإمكانيات العقل ويستغلّ طاقاته ويسير على نوره: الشكل العامّ والغاية لاهوتيان، ولكنّ العرض والمنهج عقليان، فأشدّ كتبه منهجيةً وأحكمها طرائقيةً هي كتب لاهوتية المرمى والمضمون، من هنا النزاع الناشب بين من ينفي وجود فلسفة توماوية ومن يثبت حقيقتها واستقلاليتها» [علي زيعور، الفلسفة في أوربا الوسيطة، ص 324].

على هذا فإنّه يمكن القول إنّ منهج الأكويني في الفلسفة له غاية وعرض، فالغاية لفلسفته لاهوتية، ولكنّ العرض والمنهج عقليان؛ ولهذا أطلقوا على فلسفته اسم "الفلسفة المسيحية"، فهي مسيحية؛ لأنّ المعتقد الديني في أساسها ثمّ غايتها، والله هو المبدأ والمصدر كما هو النهاية والتتويج، وكذلك فإنّ من أهمّ الجهود التي بذلتها الفلسفة الكلاسيكية تمحيصُها للمعتقدات الدينية، وملتقى المسيحية والفلسفة لم يكن سهلًا، فكان المسيحيون الأوّلون يعتقدون أنّ ممارسة الفلسفة أمر عبثي، فالوحي قد كشف لنا الحقيقة، ولا حاجة لنا للعقل، لقد كان الواجب الأوّل في نظرهم المناداة بالوحي ودعوة المسيح عليه السلام الذي يمكن أن يقود المخاطَب إلى توبة القلب، ولكنّ الأكويني حاول في فلسفته التوفيق بين الوحي والعقل، ولكنّه في الوقت نفسه لا يعطي للعقل أكثر من حجمه الطبيعي، حتّى يُنقل عنه قوله: «في عقيدتي الكثير ممّا يفوق عقلي، ولكن ليس فيها ما يناقضه» [لويس صليبا، توما الأكويني وأثره عبر العصور، ص 108].

أ- رابطة العقل والوحي عند الفلاسفة المسيحيين قبل الأكويني

لقد شغلت هذه المسألة الفلاسفة المسيحيين قبل الأكويني، فهذا إكليمندس الإسكندري (Clement of Alexandria) الذي كان يتوسّم في الإنجيل "الفلسفة الحقيقية" ويشبّه الفلسفة، من باب القياس بالشريعة الموسويّة، ويرى فيها تعليمًا ممهِّدًا للإيمان المسيحي ومدخلًا إلى الإنجيل، وبما أنّ «الفلسفة تطلب الحكمة التي قوامها استقامة النفس والكلام ونقاوة الحياة، فهي تملك مؤهّلات حبٍّ وصداقةٍ تجاه الحكمة وتسعى كلّ جهدها للوصول إليها، الفلاسفة عندنا هم المغرمون بالحكمة خالقة الكون ومربّيته، أي المغرمون بمعرفة ابن الله» [الموسوعة العربية المسيحية، رسالة جامعة في الإيمان والعقل من البابا يوحنّا بولس الثاني إلى أساقفة الكنيسة الكاثوليكيّة في العلاقات بين الإيمان والعقل].

وهناك بعض المفكّرين المسيحيين اعتمدوا الفكر الفلسفي بطريقة نقديّة، ولا بدّ من أن نذكر خصوصًا أوغسطين (Augustinus)؛ حيث كان على اتّصال بمدارس فلسفية مختلفة، ولكنّها خيّبت كلّها ظنّه، فعندما التقى بالحقيقة المسيحية أمامه، شعر أنّه توصّل الى حقيقة لم تستطع الفلسفات التي التقاها من قبل أن تقوده إليها، وقد أفصح هو نفسه عن سبب ذلك: «آثرت منذئذٍ لهذا السبب العقيدة

الكاثوليكية، وشعرت أنّها تطلب باعتدال وبدون غش أن يؤمن الإنسان بما لم يقم عليه البرهان ـ سواءٌ أكان هناك دليل وظلّ مستغلقًا على البعض أو لم يكن هناك دليل البتّة ـ بينما كان "المانيون" يَعِدون بالعلم بطريقةٍ متهوّرةٍ ولا يبالون بإيمان الناس ويفرضون عليهم بعد ذلك التسليم بما لا يحصى من الخرافات والسخافات التي لم يكن بالإمكان إقامة الدليل عليها» [أوغسطينوس، الاعترافات، ص 77 و78].

وفي اللاهوت المسيحي المدرسي نرى العقل المثقّف بالفلسفة يتعاظم شأنه في قضيّة فهم الإيمان، فالإيمان لا يتعارض مع البحث العقلاني، العقل ليس مدعوًّا إلى أن يحكم في محتوى الإيمان. نعم، له دورٌ أساسيٌّ ومهمٌّ في إثبات أصول الإيمان، أمّا المحتوى فليس من شأنه الدخول في تفاصيله، وهذا ما سنشاهده في نظرية الأكويني حول رابطة العقل والوحي، فالتناغم الأساسي بين المعرفة الفلسفية والمعرفة بالإيمان، فهناك علاقة ترابط بين العقل والايمان (الوحي)، فالإيمان يطلب أن يُدركَ موضوعه عن طريق العقل، والعقل في ذروة بحثه يرضى بضرورة محتوى الإيمان.

في هذه المسيرة الطويلة، يشغل الأكويني مكانًا فارقًا جدًّا، ففي زمنٍ عاد فيه المفكّرون المسيحيون إلى اكتشاف كنوز الفلسفة القديمة والفلسفة الأرسطوطالية بطريقة مباشرة، كان له الفضل الكبير في التركيز على التناغم القائم بين العقل والإيمان، فهو يرى أنّ نور العقل ونور الإيمان كلاهما من الله، على حدّ تفسيره؛ ولذا لا يستطيعان أن يتناقضا. [توما الأكويني، الخلاصة اللاهوتية، ج 1،ص 7]

ويرى الأكويني أنّ الفلسفة بإمكانها أن تساهم في فهم الوحي الإلهي، فالإيمان لا يخشى إذن العقل، بل يلتمسه ويثق به، وكما أنّ النعمة تفترض الطبيعة وتكمّلها كذلك الإيمان يفترض العقل ويكمّله. [انظر: الأكويني، الخلاصة اللاهوتية، ج 1، ص 8]

فالأكويني مع تلميحه وتصريحه بما يتّصف به الإيمان من طابع يتخطّى الطبيعة، لم يُغفل ما يتميّز به الإيمان أيضًا من طابع عقلاني، والواقع أنّ الإيمان هو نوعًا ما "رياضةٌ للفكر"؛ وذلك بأنّ العقل البشري لا يتلاشى ولا يُقهر عندما يذعن لمحتوى الإيمان، هذا المحتوى إنّما ندركه بفعل خيار حرّ ومسؤول، يقول البابا بولس السادس بمناسبة الذكرى المئوية السابعة لوفاة الأكويني القديس: «لا شكّ أنّ القديس توما قد تحلّى بأعلى درجة من الشجاعة في قولة الحقّ وحرّيّة الفكر في مواجهة المعضلات الجديدة، والنـزاهة الفكريّة في رفض كلّ تلوّثٍ للمسيحية بالفلسفة الدنيويّة، ولكن بدون رفض الفلسفة رفضًا اعتباطيًا؛ ولذا فهو يعدّ في تاريخ الفكر المسيحي من روّاد الطريقة الفلسفية الجديدة والثقافة الشاملة، النقطة المركزية ونواة الحلّ الذي عالج به بحدسه النبوي والعبقري معضلةَ التواجه الجديد بين العقل والإيمان، هي ضرورة التوفيق بين دنيوية العالم وجذرّية الإنجيل، فتجنّب بذلك تلك النـزعة اللاطبيعيّة المتنكرّة للعالم وقيمه، من دون أن يخلّ بالنظام العلوي ومقتضياته الصارمة» [يوحنا

بولس الثاني، خطاب إلى المشاركين في المؤتمر التوماوي الدولي التاسع، تعاليم 13، ص 770 و771].

لتتّضح الصورة بشكل أكمل أقول: إنّ الأكويني أخذ بجناحي العقل والوحي للانطلاق نحو الحقيقة، ولكنّه عندما يصل الى مراحل متقدّمة من درجات الايمان يترك العقل ويكتفي بالوحي للوصول الى ما يبغي، ولتوضيح هذه النظرية لا بأس أن أمثّلها في محاورة افترضتها بين الأكويني وبين الوحي والعقل بخصوص واحدة من أصعب وأعقد المسائل الاعتقادية في المسيحية، وهي عقيدة التثليث، والتي ترتبط بماهية الله ﷻ، والحوار الذي افترضه هو :

الأكويني: يسأل العقل عن ماهية الله تعالى: أيّها العقل هل تستطيع أن تكشف لنا عن ماهية الله تعالى؟

العقل: للأسف لا أستطيع معرفة ماهية الله تعالى؛ لأنّها معرفة خارجة عن محدوديتي وقدرتي؛ ولهذا أنا جاهل بها، وأنا موجود قاصر لنيل تلك الحقيقة.

الأكويني: يسأل الوحي عن ماهية الله تعالى: أيّها الوحي هل يمكن أن تكشف لنا عن ماهية الله تعالى؟

الوحي مجيبًا للأكويني: نعم، أنا قادر على كشف ماهية الله تعالى[1]، الله ﷻ مثلّث الأقانيم (وفقًا للعقيدة المسيحية في التثليث أو الثالوث الأقدس) وهذه الأقانيم هي: (الأب ـ الابن ـ الروح القدس).

ينتفض العقل: هذا لا يجوز فإنّه مخالف لضروریاتي؛ ولهذا أنا أرفض هذه المعرفة بماهية الله تعالى.

يجيب الأكويني: أيّها العقل لماذا تحشر أنفك في أمرٍ أنت جاهل به وخارج عن نطاق قدرتك؟ لقد سألتك عن ماهية الله تعالى وأجبتني بعجزك عن إدراكها، وعندما كشف لي الوحي ذلك أراك تعترض؟ وهذا الاعتراض ليس من حقّك إطلاقًا، فالحقيقة التي تعجز عن إدراكها لقصورك، الوحي قادر على كشفها، وليس بالضرورة أن تكون موافقة لضروریاتك العاجزة القاصرة.

من خلال هذه المحاورة الافتراضية نكتشف أنّ الأكويني وبقيّة الفلاسفة المسيحيين لا يرفضون العقل الفلسفي بصورة كاملة، بل هم يقبلونه ما وافق الوحي، ولكن عندما يقف على الضدّ من بعض تعاليم الوحي، ويناقض عقائد الإيمان، ينحونه جانبًا ويقبلون الوحي كاشفًا عن الحقيقة دون العقل، والحقيقة هناك ملاحظات عقلية ومنطقية في مقام مناقشة هذه النظرية عند الفلاسفة المسيحيين،

(1) الحقّ أنّه لا ماهية لله تعالى؛ ولهذا لا يمكن لمخلوق (إنسان أو ملك او غيره) أن يدرك كنه ذات الله بأيّ طريق كان، سواءٌ عن طريق العقل أم الوحي أم الشهود، وهذا ما أكّدت عليه النصوص الوحيانية في الكتب المقدّسة السماوية كالتوراة والإنجيل والقرآن.

فأوّل إشكال يواجه الفلاسفة واللاهوتيين المسيحيين ـ ومنهم الأكويني ـ هو أنّهم يقعون في مغالطة واضحة حول حقيقة العقل؛ لأنّ الأمور والقضايا التي تواجهنا لا تخرج عن ثلاث حالات حسب العقل، فإمّا أن تكون تلك القضايا موافقةً للعقل فيقبلها العقل ويذعن لها، كالقضية القائلة بأنّ الجزء أصغر من الكلّ، فالعقل البشري يوافقها ويصدقها؛ وإمّا أن تكون مخالفةً للعقل فيرفضها العقل ويحكم ببطلانها، كاجتماع النقيضين أو ارتفاعهما، فالعقل يرفض هذه القضية مطلقًا؛ لأنّها من المحالات العقلية.

وأمّا أن تكون بنحوٍ لا يستطيع العقل أن يكشفها بصورةٍ مباشرةٍ، كالقضايا والحقائق الغيبية التي تقصر يد العقل عن تناولها والوصول إليها بشكلٍ مباشرٍ، ولولا إخبار الوحي الإلهي عنها لم يكن للإنسان أن يتعرّف عليها، كبعض الأحكام الشرعية وكيفيتها، وكذلك الرابطة بين الأفعال الاختيارية للإنسان في الحياة الدنيا ونتائجها الأخروية، فهذه الرابطة يعجز العقل عن إدراكها فهي لا تدخل في دائرته لأنّها ترتبط بعالم الغيب، وغيرها من الأمور، ولكن غالبًا المغالطة تقع في أنّ القضايا التي لا يدركها العقل البشري، يجب أن لا تدخل تحت الشقّ الثاني، أي أن لا تكون مخالفةً للعقل وبراهينه الثابتة؛ وإلّا صارت من المحالات التي يرفضها العقل ويبطلها، وهذا ما نجده بالضبط في فهم ماهية الله وذاته تعالى وما يذهبون إليه في عقيدة التثليث. [انظر: الميزان في تفسير القرآن، ج 3، ص 355]

ب ـ دور الروح القدس في المعرفة عند الأكويني

من الخصائص التي تميّز بها منهج الأكويني الفلسفي هو بيانه لدور الروح القدس في إنضاج المعرفة البشريّة والارتقاء بها إلى مرتبة الحكمة الحقيقية، ففي أولى صفحات الخلاصة اللاهوتية، أراد الأكويني أن ينوّه بأوّليّة الحكمة التي هي موهبة من مواهب الروح القدس، والتي تُدخِل الإنسان إلى معرفة الحقائق الإلهية، خصوصية هذه الحكمة هو في ارتباطها الوثيق بالإيمان وبالمعرفة الإلهية، هذه الحكمة تتميّز بمعرفة فطريّة، وتفترض الإيمان وتتوصّل إلى استنباط حكم صائبة انطلاقًا من الإيمان نفسه، حيث يقول: «علاوةً على ذلك، فهذه العقيدة يحصلها الإنسان بالدرس وأمّا الحكمة فيمتلكها الإنسان بالإفاضة وحسب، ومن ثمّ في عداد مواهب الروح القدس السبع، والحكمة المعدودة موهبةً من مواهب الروح القدس هي غير الحكمة المعدودة فضيلةً فكريةً مكتسبةً، فهذه يكتسبها الإنسان بجهده وأمّا تلك "فتنحدر من العلاء" على حدّ قول الرسول يعقوب، وهي لذلك تختلف عن الإيمان؛ لأنّ الإيمان يذعن للحقيقة الإلهية في حدّ ذاتها، وأمّا موهبة الحكمة فمزيتها أن تحكم طبقًا للحقيقة الإلهية» [الأكويني، الخلاصة اللاهوتية، المسألة الأولى، ص 6].

فالأكويني يتحدّث عن وجود شكلين متكاملين من الحكمة، الحكمة الفلسفية التي ترتكز على قدرة

العقل على التماس الحقيقة ضمن حدوده الفطرية، والحكمة اللاهوتيّة التي ترتكز على الوحي والتي تفحص محتوى الإيمان لتصل إلى سرّ الله ذاته، والمتتبّع لآراء الأكويني في نظرية المعرفة الإنسانية يرى بوضوحٍ أنّ الأكويني كان مقتنعًا كلّ الاقتناع من القول المأثور: «كلّ حقيقة أيًّا كان قائلها، هي من الروح القدس» [الموسوعة العربية المسيحية، رسالة جامعة في الإيمان والعقل من البابا يوحنا بولس الثاني إلى أساقفة الكنيسة الكاثوليكيّة في العلاقات بين الإيمان والعقل].

والواقع أنّه قد توصّل بفكره إلى فلسفة واقعية حكمية لم يكن العقل الفلسفي المسيحي آنذاك ليحلم بالوصول إليها؛ وذلك لأنّه استمرّ دائمًا في اتّجاه كشف الحقيقة الشاملة والموضوعية والسامية سواءٌ عن طريق العقل أو الوحي؛ ولأنّه كان يبحث عن الحقيقة كما يقول، تلقّت فلسفته رواجًا بعد رحيله حتّى أصبحت الكنيسة الكاثوليكية على وجه الخصوص تعتمد منهجه الفلسفي في نظرته الواقعية والحكمية. [انظر: البابا بولس السادس، رسالة نور الكنيسة، ص 683]

لفلسفة الأكويني أيضًا دور مهم في التوفيق بين العقل والعلم من جهة، وبين الوحي ومحتوى الايمان من جهة أخرى، ويعدّ الأكويني في طليعة القائلين بضرورة التسليم باستقلالية الفلسفة والعلم في مجالات أبحاثهما، مع المحافظة على العلاقة بين اللاهوت والفلسفة، ولكن مع نهاية العصر الوسيط، أخذ الفرق بين علمي اللاهوت المسيحي والفلسفة يتحوّل شيئًا فشيئًا إلى انفصال لينددوا بكلّ مرجعية عقلانية للإيمان، بالنتيجة فما سعى وتوصّل إليه الفكر الأكويني من إقامة وحدة عميقة وفاعلة تُولِّد معرفةً قادرةً على الوصول إلى أرقى أشكال الفكر النظري انهار عمليًّا تحت وطأة الفلسفة والأفكار المنادية بمعرفة عقلية مفصولة عن الإيمان.

ولا نبالغ إن قلنا إنّ معظم الفكر الفلسفي المعاصر قد تطوّر متباعدًا عن الوحي المسيحي إلى حدّ معارضته بطريقة علنية، وهذا التيّار بلغ ذروته في القرن التاسع عشر والعشرين، فبعض ممثّلي الفلسفة صوّروا الإيمان بصورة الخطر الوبيل الذي يتهدّد العقل والعقلانيّة؛ لهذا نبّه البابا يوحنّا بولس الثاني إلى خطر اعتبار هذا الفكر الفلسفي، وكتب في هذا الشأن: «إنسان اليوم يبدو دائمًا مهدّدًا بما يصنعه، أي بنتيجة عمل يديه، وبالأكثر بعمل ذهنه ونزعات إرادته. ثمار هذه النشاطات المتنوّعة التي يقوم بها الإنسان لا تُنتزع فقط من بين يديه، بطريقة سريعة وغير منتظرة، بل ترتدّ أحيانًا بنتائجها على الإنسان نفسه ولو بطريقة جزئية وغير مباشرة، فتتوجّه أو يمكن أن تتوجّه ضدّه، على هذا يقوم ربّما الفصل الأساسي من مأساة الوجود البشري اليوم في بعده الأوسع والأشمل، فالإنسان يعيش أكثر فأكثر في دوامة الخوف؛ إنّه يخشى أن ترتدّ عليه منتوجاته، لا كلّها طبعًا ولا معظمها بل بعضها، وبخاصّةٍ تلك التي تتضمّن جزءًا ملحوظًا من عبقريته وقدرته الخلاقة» [المصدر السابق، ص 685].

ويقول البابا في رسالته الجامعة في العلاقات بين الإيمان والعقل: «فما نراه اليوم في الفلسفة واللاهوت المسيحي هو الفصام المتزايد بين الإيمان والعقل الفلسفي، ومع ذلك تعتقد الكنيسة أنّه ما زالت هناك بذور فكرية نفيسة بإمكانها أن تساعد في الكشف عن الحقيقة عن طريق العقل والوحي، حتّى عند الفلاسفة الذين ساهموا في توسيع الهوّة بين الإيمان والعقل، فالعلاقة الراهنة بين الإيمان المسيحي والعقل الفلسفي الغربي في الظاهر تقتضي التجديد وفقًا للمذهب الأكويني؛ لأن العقل والإيمان تباعدًا بشكلٍ كبيرٍ، فالعقل بدون الوحي يتخبّط في دروب جانبية بإمكانها أن تثنيه عن رؤية هدفه الأخير، والإيمان بدون العقل أخذ يركّز على الإحساس والاختبار، متعرّضًا لأن تسقط عنه ميزة الشمولية، ومن العبث التفكير بأنّ الإيمان يقوى بإزاء عقل ضعيف؛ بل بالعكس هو يتعرّض لأن يمسي مجرّد أسطورة أو خرافة، وكذلك العقل، إذا لم يواكبه إيمان بالغ، لا يعود يهتمّ لما هو جديد وجذري في الحياة» [الموسوعة العربية المسيحية، رسالة جامعة في الإيمان والعقل من البابا يوحنا بولس الثاني إلى أساقفة الكنيسة الكاثوليكيّة في العلاقات بين الإيمان والعقل].

كما يميّز الأكويني بين العقل والايمان من جهة، ثمّ يوحد بينهما من جهة أخرى، فالفلسفة قوامها العقل والبرهان، والدين أساسه الوحي والايمان، والمبدأ الأساسي عنده هو انسجام الايمان والعقل، سعيًا وراء وحدة بينهما معيارها الدين؛ لهذا جعل الأكويني الفلسفة خادمةً للدين.

فالإيمان والعقل هما بمنزلة الجناحين اللذين يمكّنان العقل البشري من الارتقاء إلى تأمّل الحقيقة، فالإنسان منذ نشأته يطرح على ذاته أسئلةً عميقةً تطبع مسيرة الوجود البشري بطابع متميّز: من أنا وإلى أين؟ لماذا وجود الشرّ وماذا يعقب الحياة؟ هذه الأسئلة لها مصدر مشترك هو البحث عن المعنى، والجواب على هذه الأسئلة هو الذي يوجّه حياة الإنسان، يقول الأرشمندريت أغناطيوس ديك في مقال له تعليقًا على رسالة الإيمان والعقل: «في المجمع الفاتيكاني الأوّل أكبّ الآباء على التنويه بالطابع السماوي في الوحي الإلهي، ورفض النقد العقلاني الذي كان يطعن في الإيمان انطلاقًا من طروحات خاطئة كان يهدف إلى نفي كلّ معرفة لا تجنى من طاقات العقل الطبيعية، فأكّد المجمع بقوّة أنّ هناك معرفةً هي من نتيجة الإيمان إلى جانب المعرفة النابعة من العقل البشري، والإيمان يرتكز على كلام الله ووحيه وهو لا يخطئ ولا يريد أن يخدع، وأن الحقيقة التي نحصل عليها عن طريق الفكر الفلسفي والحقيقة الصادرة عن الوحي لا تختلطان، والواحدة لا تُغني عن الأخرى، وهما متميّزتان من حيث المصدر والموضوع» [الأرشمندريت أغناطيوس ديك، رسالة الإيمان والعقل للبابا يوحنّا بولس الثاني، موقع سلطانة الحبل بلا دنس http:// www.peregabriel.com].

فالعلاقة بين العقل والوحي أو الفلسفة والإيمان عند الأكويني هي علاقة تكاملية، ولكن بمعنى

أنّ العقل البشري محدود في معرفة الكثير من الامور الغيبية. نعم، استعمال العقل والفلسفة هي من القدرات التي وضعت في تصرّف البشر، فالله لم يزرع عبثًا في روح الإنسان العقل، وحاشا لنور الإيمان أن يطفئ أو يضعف قدرة العقل ... وتستطيع الفلسفة عندما يستعملها الحكماء كما ينبغي أن تمهّد وترسّخ السبيل إلى الإيمان الحقيقي، وأن تهيّئ عقول طلّابها لتقبّل الحقيقة، ولكنّ الله اللامتناهي لم يظهر جميع الحقائق للعقل؛ ولكنّ أغلب تلك الحقائق يستطيع الذهن البشري إدراكها بذاته، فأظهر بعضًا منها ممّا لا يعجز العقل تمامًا عن إدراكه. [انظر: د. لويس صليبا، هكذا علم توما الأكويني، ص 102]

فالأكويني يرى أنّ العقل والوحي ما دام كلّ منهما سبيلًا الى الحقيقة يجب أن يتّفقا، وليس من الجائز أن يعلم الوحي ما يأباه العقل، وليس من الجائز كذلك أن ينكمش العقل فيصدّ عن الوحي؛ ولذلك من حقّ العقل أن ينظر في كلّ ما يعلّمه الوحي، وأن ينبذ ما يبدو له مستحيلًا [1]، ومن حقّ الوحي أيضًا أن يفرض على العقل غربلة المقدّمات التي يسلّم بها تسليمًا بدهيًّا، ومتى استقام القصد من الناحيتين، تسنّى للمؤمن أن لا يسلّم بالمستحيلات، وتسنّى للعقل أن ينفي من مبادئه ما ليس ثابتًا. [ميخائيل ضومط، توما الأكويني، ص 43]

ومن خلال ما استعرضناه من العلاقة بين العقل والوحي نستطيع أن نميّز بين الفلسفة والوحي المسيحي، فميدان الأولى هو العقل الذي على نوره الطبيعي وحده تُستكشف الحقيقة، فيستعمل الفيلسوف مبادئ يعرفها العقل ثمّ يستنتج منها نتائج هي ثمرة البرهان والدليل، فلا يقبل إلّا ما يقوم على الدليل العقلي المنطقي، بعبارةٍ أخرى، يبدأ الفيلسوف من المخلوقات ثمّ يرتفع إلى الله. أمّا الوحي المسيحي فيرتكز على سلطة الله والإيمان، وحقائق الإيمان معارف ذات مصدرٍ فوق طبيعي، وعلينا قبولها كما وردت، وبحسب الأكويني فالمعتقدات لا تخالف العقل، بل إنّها تفضّل التأويل العقلاني لأشكالها، ثمّ إنّ للفلسفة دورًا إيجابيًّا ومثمرًا في ميدان اللاهوت، فمن خلالها نستطيع إثبات قواعد الإيمان الأوّليّة وهي الإيمان بوجود الله تعالى، ولكنّ هذا يتعارض بالظاهر مع ما ذهب إليه أوغسطين في مقولة الإيمان يسبق العقل؛ لأنّ الإيمان فطري[2]، والعقل فكر واستدلال؛ لذلك فإنّ الإيمان الفطري سابق للعقل؛ ولهذا نجد أنّ أوغسطين ينطلق من المبدإ الشهير "أؤمن كي أتعقّل" بمعنى أنّه حتّى

(1) وهنا أعتقد وجه الاختلاف بين الفكر اللاهوتي المسيحي والإسلامي، فعند الأكويني عقائد وأصول مثل تجسّد الله (المسيح) والثالوث وغيرها لا تعتبر مخالفة لبدهيّات العقل، وبالتالي ليست محالةً من وجهة نظره، بل هي خارجة عن محدودية العقل وقدراته كما أشرت سابقًا، في حين نجد أنّ الفلسفة الإسلامية تعتبر هذه العقائد والأصول مخالفةً للعقل النظري وبدهيّاته، وبالتالي فهي محالةٌ.

(2) حسب فهمه للفطرة، والتي ينكر الأكويني المعرفة الفطرية بالله تعالى.

مسألة إثبات وجود الله في حدّ ذاتها ترتكز على الإيمان، ولا يعني هذا أنّه يغفل أهمية البراهين العقلية والاستدلالات الفكرية، فالعقل قادر بلا ريب على أن يثبت بمفرده وجود الله؛ إذ إنّ تلك الحقيقة قد عرفها الفلاسفة الوثنيون، أي بمعزل عن كلّ وحي وعن كلّ إيمان، ويعني ذلك أيضًا أنّ الإيمان لا يمنع العقل عن تقديم أدلّته، وأنّ العقل يساعد المؤمن على اكتشافٍ أجلى للجانب العقلاني في إيمانه. [انظر: علي زيعور، الفلسفة في أوربا الوسيطة، ص 109]

وتوما الأكويني مع اهتمامه البالغ بالفسلفة والعقل وتطويعهما في خدمة اللاهوت، ومع تيقّنه بأنّ العقل قاصر عن نيل كلّ الحقيقة، ولكنّه في الوقت نفسه يجعله الحكم الذي لا يكذب، ومع أنّه يصف الله تعالى بأنّه بسيط الحقيقة لا يشوبه أيّ نوعٍ من أنواع التركيب والحركة، وهو واحد لا ثاني له ووحدانيته أمر لا شبهة فيه عنده، ولا يمكن رؤيته بالعين أو الحسّ أو الوهم والخيال، لكن مع هذا فإنّه يعتقد بل يدافع عن ألوهية "ابن الله" المسيح، وكذلك عن التثليث، ويعتبره غير منافٍ للوحدانية بأيّ شكل كان، فألوهية الأب وألوهية المسيح الابن وألوهية الروح القدس لا يمكن معرفتها عن طريق العقل الطبيعي، بل عن طريق الإيمان، ولكنّ السؤال الذي يواجهه هنا هو: إذا كان ممتنعًا على الإنسان أن يعلم ويدرك بفهمه ما لا يمكن إقامة دليلٍ عقلي قاطع عليه، يلزم أن تكون عقيدة ألوهية المسيح والثالوث ممتنعةً عقلًا؟ والجواب أن يقال: نعم، يمتنع الوصول بالعقل الطبيعي إلى معرفة ثالوث الأقانيم الإلهية، فالإنسان لا يستطيع أن يتأدّى بالعقل الطبيعي إلى معرفة الله إلّا بالمخلوقات. [الأكويني، الخلاصة اللاهوتية، ج 1، ص 399]

سادسًا: نقد منهج الأكويني في العلاقة بين العقل والوحي

الأكويني كما أشرنا يعطي للعقل مكانةً مرموقةً؛ ولهذا فانّ البرهان العقلي والمنطقي يعدّ من الأسس في المنهج الفلسفي التوماوي، ومن أبرز ميزاته، فكان فيلسوفًا في خدمة اللاهوت يقول جيلسون: «صحيح أنّه اقتنع بعجز العقل لكنّه طبّق هذه الآلة بلا كللٍ ولا تقصيرٍ، على الموضوعات الموغلة في الغيبيات، وعلى هذا فإنّ الأكويني فيلسوف في خدمة لاهوتي، وتدور فلسفته في فلك اللاهوت، لم يمارس الفلسفة إلّا من حيث إنّها ذات نفع للحكمة الدينية، في تكرار موضّح، إنّ ما هو فلسفي في تلك البنية هو ما جاور اللاهوت ووقف عند تخومه يحميها أو يؤيّدها، إنّه لاهوتي، ولكنّه يتسلّح بإمكانيات العقل ويستغلّ طاقاته ويسير على نوره: الشكل العامّ والغاية لاهوتيان، ولكنّ العرض والمنهج عقليان، فأشدّ كتبه منهجيةً، وأحكمها طرائقيةً، هي كتب لاهوتية المرمي والمضمون، من هنا النزاع الناشب بين من ينفي وجود فلسفة توماوية ومن يثبت حقيقتها واستقلاليتها» [جيلسون، التوماوية، ص 15].

فالأكويني مع تلميحه وتصريحه بما يتّصف به الإيمان من طابعٍ يتخطّى العقل، لم يُغفل ما يتميّز به الإيمان أيضًا من طابع عقلاني، وقد أخذ بجناحي العقل والوحي للانطلاق نحو الحقيقة، ولكنّه عندما يصل إلى مراحل متقدّمة من درجات الإيمان يترك العقل ويكتفي بالوحي للوصول إلى ما يبغي، فالأكويني وبقيّة الفلاسفة المسيحيين لا يرفضون العقل الفلسفي بصورة كاملة، بل هم يقبلونه ما وافق الوحي، ولكن عندما يقف على الضدّ من بعض تعاليم الوحي، ويناقض عقائد الإيمان، ينحونه جانبًا ويقبلون الوحي كاشفًا عن الحقيقة دون العقل، وهذه من المغالطات المرفوضة منطقيًّا، فالعقل هو الحاكم الذي لا يمكن تجاوز أحكامه إطلاقًا.

ولعلّ الأكويني قد تأثّر بفهمه الخاطئ لبعض آراء ابن سينا في هذه المسألة، فقد يعتقد الأكويني أو أتباعه من التوماييّة الحديثة أنّ الشيخ الرئيس يرى استقلاليةً في المنهج العقلي في إثبات الحقائق الوجودية، ولكن في حالة مخالفة الوحي القطعي لبعض الأصول الفلسفية المبرهنة، وخصوصًا في مسألة المعاد الجسماني، فإنّه يقدّم الوحي على العقل، ففي الظاهر فقد أخفق ابن سينا في تحقيقه وإثباته فلسفيًّا وعقليًّا وآمن به تعبّديًّا، مع أنّه في الظاهر لا يتوافق مع البرهان العقليّ، وهذا ما يريد أن يقوله الأكويني في تقديم الوحي على العقل في حال المخالفة، وعدم تأويل الوحي، فالشيخ الرئيس لم ينكر المعاد الجسماني، ولكنّ البحث العقلي الاستدلالي انتهى به إلى القول بالمعاد الروحاني كما فهمه بعضهم، وهذا مخالف في نظره لما جاء به الوحي الإلهي، فطبقًا لمنهج ابن سينا فإنّه يرى إنّ العقل لا يستطيع معرفة كلّ الحقائق المرتبطة بعالم الآخرة، وقد صرّح بهذه الحقيقة حيث يقول: «يجب أن يعلم أنّ المعاد منه ما هو مقبول من الشرع، ولا سبيل إلى إثباته إلّا من طريق الشريعة، وتصديق خبر النبوّة، وهو الذي للبدن عند البعث، وخيرات البدن وشروره معلومة لا يحتاج إلى أن يعلم، وقد بسّطت الشريعة الحقّة التي أتانا بها سيّدنا ومولانا ونبيّنا محمد ﷺ حال السعادة والشقاوة التي بحسب البدن، ومنه ما هو مدرك بالعقل والقياس والبرهان، وقد صدّقته النبوّة، وهو السعادة والشقاوة الثابتتان بالقياس اللتان للأنفس، وإن كانت الأوهام هاهنا تقصر عن تصوّرهما الآن» [ابن سينا، النجاة، ص 291]، فابن سينا يصرّح بعجز العقل عن إثبات المعاد الجسماني للبدن، واضطرّ إلى أن يرجع فيه إلى الوحي والتعبّد بتعاليمه، ولكنّه لا يعدّ المعاد الجسماني للبدن محالًا عقلًا.

وقد حاول الأكويني أن يتوصّل إلى حلًّا وسطًا مشتركًا بين مجالي الفلسفة والدين سمّاه بعلم اللاهوت الطبيعي، وهو علم يجعل الفلسفة خادمةً للدين، ويسعى العقل فيه لصياغة تعاليم الوحي بمنظور عقلاني؛ لهذا كان للعقل أثر فعّال في تكوين المعرفة اللاهوتية انسجامًا مع تعاليم الإيمان، ولكنّ العقائد المسيحية كالتجسّد والتثليث تختلف عمّا أشرنا إليه في المعاد الجسماني عند ابن سينا، ففيها

مخالفة لحكم العقل البرهاني المؤكّد، بخلاف المعاد الجسماني، الذي لا استحالة عقليةً برهانيةً عليه، ولكن بالرغم من ذلك فإنّ الأكويني يجعلها فوق فهم العقل، وبذلك يخرجها عن كونها مخالفةً لحكمه، وهذا واضح البطلان.

ومن هنا نستطيع أن نميّز بين الفلسفة والوحي في المنهج الفلسفي للأكويني، فميدان الأولى هو العقل الذي على نوره الطبيعي وحده تُستكشف الحقيقة، فيستعمل الفيلسوف مبادئ يعرفها العقل، ثمّ يستنتج منها نتائج هي ثمرة البرهان والدليل، فلا يقبل إلّا ما يقوم على الدليل العقلي المنطقي، أمّا الوحي فيرتكز على سلطة الله والإيمان، وحقائق الإيمان معارف ذات مصدر فوق طبيعي، وعلينا قبولها كما وردت.

وهذا المنهج التلفيقي بين العقل والوحي يعدّ من المسائل المهمّة والأساسية في كيفية الاستدلال بالعقل على إثبات المسائل، ولكنّ الأكويني يجعل الوحي هو الأساس ويستدلّ به، وفي الوقت نفسه يسعى للتأليف بين ما كشفه وبين الأسس العقلية، وإذا وجد اختلاف حقيقي لا ظاهري، فالقول الفصل هو للوحي لا للعقل، وهنا يكمن أساس المشكلة في منهجه الفلسفي.

النتيجة والخاتمة

من خلال ما استعرضناه من بحث وتمحيص توصّلنا إلى نتائج مهمّة يمكن تلخيصها بالنقاط التالية:

1ـ من خلال البحث والدراسة للمنهج الفلسفية للأكويني اتّضح من خلال التقارب في الآراء في كثير من المسائل الفلسفية أنّه قد استقى منهجه ورؤيته الفلسفية من المدرسة المشّائية، وعلى الخصوص آراء ابن سينا الفلسفية، فهي المنبع الأصلي للفلسفة الأكوينية التي اجتاحت أوروبا منذ القرن الثالث عشر.

2ـ حاول الأكويني جاهدًا أن يأخذ بجناحي العقل والوحي للانطلاق نحو الحقيقة، ولكنّه عندما يصل إلى مراحل متقدّمة من درجات الإيمان يترك العقل ويكتفي بالوحي للوصول للحقيقة، فالأكويني لا يرفض العقل الفلسفي وبراهينه، بل يقبله ما وافق الوحي، ولكن عندما يقف على الضدّ من بعض تعاليم الوحي، ويناقض عقائد الإيمان، ينحّيه جانبًا ويقبل الوحي كاشفًا عن الحقيقة دون العقل، بل وإن كان هذا الكشف مخالفًا لضرورة عقلية أو برهان عقلي، وهذا المنهج من الكشف عن الحقيقة مرفوض عند فلاسفتنا المسلمين ورؤيتنا الإسلامية.

قائمة المصادر

ابن سينا، الحسين بن عبد الله، النجاة، دار الحياة، بيروت، 2005 م.

ابن سينا، الحسين بن عبد الله، الأضحوية، سازمان تبليغات، قم، 1384 ش.

ابن سينا، الحسين بن عبد الله، الشفاء، تحقيق حسن حسن زاده آملي، دار الأضواء، بيروت، 2001 م.

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار الفكر للطباعة والنشر، 1986 م.

إدوار، جونو، الفلسفة الوسيطية، المغرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، 1982 م.

الأكويني، توما، الخلاصة اللاهوتية، ترجمة بولس عواد، بيروت، المطبعة الأدبية، 1981 م.

البدوي، عبد الرحمن، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، 2003 م.

بول ديفيز، الجائزة الكونية الكبرى، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005 م.

الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، ناصر خسرو، طهران، 1379 ش.

خليفة يوسف، مناهج البحث الأدبي، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 2004 م.

صليبا، لويس، هكذا علم توما الأكويني، دار المكتبة بيبليون، بيروت، 2010 م.

ضومط، ميخائيل، توما الأكويني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997 م.

الطباطبائي، محمدحسين، الشيعة في الإسلام، موسسة تاريخ علم، طهران، 1387ش.

الطباطبائي، محمدحسين، أصول الفلسفة والمنهج الواقعي، ترجمة عمار أبو رغيف، صدرا، طهران، 1380 ش.

طرابيشي، جورج، معجم الفلاسفة، دار الآداب، بيروت، 1999 م.

عبد الإله أبو عياش، الفيلسوف توماس الأكويني غذّته الفلسفة الرشدية فتنكّر لها، مقالة في مجلّة الأقلام، السنة الأولى، ربيع الثاني، 1985 م.

علي زيعور، الفلسفة في أوربا الوسيطة، الفلسفة في أوربا الوسيطة، بيروت، مكتبة العالمي للنشر، 1989 م.

الفارابي، أبو نصر، رسائل الفارابي، العراق، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، 1989 م.

كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2005 م.

الكندي، يعقوب بن إسحاق، رسائل الكندي الفلسفية، المكتبة العصرية، القاهرة، 1987 م.

لويس صليبا، توما الأكويني وأثره عبر العصور، دار المكتبة بيبليون، بيروت، 2011 م.

محمد جلوب الفرحان، أوراق فلسفية جديدة، المجلد الثالث، العدد الخامس، شتاء 2012 م.

مصباح اليزدي، محمدتقي، الذود عن حصون الأيدلوجية، مؤسسة الانتشارات الإسلامية لجامعة المدرسين للحوزة العلمية، قم، 1409 هـ

مطهري، مرتضى، أسس الفلسفة، موسسة الإمام الصادق، قم، 1388 ش.

المنياوي، أحمد، جمهورية أفلاطون، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، بيروت، 2010 م.

الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل وجلال العشري وعبد الرشيد الصادق، مؤسسة الشرق الأوسط، بيروت، 2005 م.

المواقع

الأرشمندريت أغناطيوس ديك، رسالة الإيمان والعقل للبابا يوحنا بولس الثاني، موقع سلطانة الحبل بلا دنس، http:// www.peregabriel.com

محمد عثمان الخشت، العقلانية جدل الفلسفة والدين، مقالة في:

http://www.onislam.net/arabic

الموسوعة العربية المسيحية، رسالة جامعة في الإيمان والعقل من البابا يوحنا بولس الثاني إلى أساقفة الكنيسة الكاثوليكيّة: www.albishara.net

Refrence

Edward, Juno, ***Medieval Philosophy***, Morocco, Darul-Andalus for Printing, Publishing and Distribution, 1982 AD.

Aquinas, Thomas, ***Compendium Theologiae***, translated by: Paules Awwad, Beirut, Literary Press, 1981 AD.

Paul Davies, ***Cosmic Grand Prix***, Al-Resala Foundation, Beirut, 2005 AD.

Dhoumit, Michael, ***Thomas Aquinas***, Darul-Kutub al-Ilmiyya, Beirut, 1997 AD.

Al-Farabi, Abu Nasr, ***Rasa'ilul-Farabi***, Iraq, Dar Neinawa for Studies, Publishing and Distribution, 1989 AD.

Karam, Youssuf, ***The History of Greek Philosophy***, al-Intishar al-Arabi Foundation, Beirut, 2005 AD.

Al-Kindi, Ya'qoub bin Ishaq, ***Rasa'ilul-Kindi al-Falsafiyya***, Al-Asriyya Library, Cairo, 1987 AD.

Louis Saliba, ***Thomas Aquinas and his Impact throughout the Ages***, Darul Maktaba Biblion, Beirut, 2011 AD.